

## سقراط

### الرجل الذي جرؤ على السؤال

ألفت هذا الكتاب، الكاتبة كورامسن Cora Mason وترجمة الاستاذ محمود محمود.

لقد كتب عن «سقراط» من الكاتبين، أفلاطون في «مجلس شرابه» و «محاوراته»، وزينوفون في «ذكرياته» وقد وقفت الكاتبة امام هذه الكتب ولكنها لم تمس ما بها من آراء إلا مساً رقيقاً.

على أن أفلاطون وزينوفون قد رسم كل منهما لسقراط صورة تختلف عن صورة الآخر.. صورة متباينة أو متعارضة ولكنهما في النهاية تكمل إحداهما الأخرى.

والحقيقة أن صعوبة الكتابة عن سقراط تتمثل في أنه لم يخط حرفاً ولم يترك أثراً مكتوباً فليس أمام المرء إلا أن يستقى معلوماته ممن سبقوا إلى الكتابة عنه لاسيما إذا كان هؤلاء من المعاصرين له كتلميذيه أفلاطون وزينوفون فقد عاش سقراط فيما بين 476-399 قبل الميلاد.

نستطيع أن نصف «سقراط» في عبارة أو عبارات قصيرة ولكنها بعيدة المدى.. لقد علم سقراط، الناس أسلوب التفكير.. ودعاهم إلى تحكيم العقل والى التمسك بالأخلاق.. وما بالقليل هذا.. وإن كلفه الكثير.. بل كلفه حياته.

كان شخصية فذة وإن كان متواضعا شأن العلماء.. فقد قيل له إن آلهة معبد أبولو في دلفي وصفوه بأنه أحكم رجل في بلاد اليونان فعلق سقراط على هذا القول بقوله (إنه لم يفهم معنى لهذا الوصف إلى أن تبين له أنه بينما غيره من المفكرين يعلنون معرفتهم للأمور وهم غارقون في الجهالة، فإنه الوحيد الذي لا يعرف من الأمور شيئاً).

ولتبدأ قصة سقراط أى قصة الصراع القائم والدائم بين جمود الرأى وحرية الفكر على مدى الأيام والدهور.

بداية ولد سقراط لأبوين كادحين فأمه كانت «قابلة» وأبوه كان صانعا وعلى التحديد نحاتا.

وإذن فقد كان هناك كما يقول الكتاب سفرونسكس النحات، واقفا الى جوار سرير زوجته فيناريتى، ينظر الى يدي ابنه الوليد الجديد ويرى فيهما بذرة الصناعة. ولو عرف الحق لأدرك أنه كان طوال الوقت أبا لفيلسوف سيولد بعد..

وينمو الطفل ويدخل المدرسة فإذا برفيق المدرسة وجاره فى السكن يقول: عندما رأيت سقراط لأول مرة، حسبته أقبح صبي فى أثينا.. كأنما كانت المادة التى صيغ منها وجهه أكثر خشونة وأشد صلابة من المادة التى صيغ منها غيره من الأطفال.. عيناه تجحظان كعيني صغدعة، وشفثاه غليظتان وأنفه الأفتس يبدو كأنه ذلك على طريقة خاطئة وهو فى المهد. وكانوا يسمونه فى المدرسة «وجه الضفدع».

ولم يغضب سقراط ممن كانوا يرونه شبيها بالضفدع من رفاقه بل كان يعلق على قولهم ساخرا: إن العيون التى تشبه عينيه إنما خلقت لتنظر فى جميع الجهات.. وأن الأنف الأفتس يلتقط الروائح أحسن مما يلتقطها أنف طويل مستقيم.

ويبدو أن هذه السخرية كانت مجرد استعلاء فقد أثر، عنه، أنه كان يدعو الآلهة قائلا (اجعليني جميلا فى داخلى)

ويدعوها مرة أخرى أن (تهب كنوز الحكمة، ونفسا متزنة تحمل هذه الكنوز..)

إنه العزاء فى التعويض.. أقصر الأمل فى التعويض.. إن وسامة الروح قد تفوق وسامة الوجه.

ولما شب سقراط وأخذ فى الحديث مع الناس انتهج طريقة خاصة به.. يسأل الناس سؤالا تلو الآخر ليقف على دخيلة جليسه أو محدثه.. وكانت هذه الطريقة تترك المسئول ولكنها كانت تلفت الأنظار أو تسر السامعين.

كان ولوعا بمعرفة كنه الأشياء وحقيقة الأفكار خاصة فيما يتعلق بالآلهة التى نصبها اليونان دون أن تتميز عنهم أو يميزوها عنهم فهى مثلهم لا تكف عن الصراع بألوانه.. بل قد تلج فيه وتوغل فى القسوة وتمعن فى الضغينة.. آلهة اليونان يكيد بعضها لبعض أو يفتأ عينه كما فعل بوز بأود يسيس الذى فقا عين ابنه فكان كلما ركب البحر أثار فى وجهه عاصفة واذا لم يستطع أن

يقبض على أوديسييس نفسه، أنزل العقوبة بريان السفينة وملاحيها الذين حملوه على سفينتهم.. بل إن بوزيدون حول مرة إحد السفن إلى حجر بعدما خرج منها أوديسييس واستقرت السفينة وصارت جزيرة تذكر الأجياد بالأ يعينوا عدوا من أعداء إله البحر بوزيدون.

وتدفع المقارنة إلى ذهنى إيزيس التى ذهبت إليها كليبوطره فى محتتها، وتقول كما صورها أمير الشعراء أحمد شوقى:

إيزيس ينبوع الحنان تعطفى وتلطفى لضراعتى وسؤالى  
إنى وقعت على رحابك فارحمى ذل الملوك لمجدك المتعمالى

وأتذكر مشاركة «نفثيس» إيزيس أحزانها على اوزوريس

استقر فى نفس سقراط الطفل أقاصيص الآلهة اليونانية التى كانت كما تقول المؤلفه (تتشاجر وتكذب وتسرق وتهبط فى صورة الناس تحمى أصدقاءها أو تؤذى أعداءها.. ووقع سقراط فى خضم من الآراء المتباينة مرة والمتقابلة حيناً والمتعارضة وأنا والمتناقضة تناقضا شديدا أحيانا.. عن أصل الاشياء وأصل الآلهة أيضا.

وعرف سقراط فى أثينا برجاجة العقل ووقدة الروح.. عرف بالحكمة فكان يندب للقاء كل عالم يهبط المدينة وبالتالى يدعى للعشاء فى بيوت لا ترحب عادة بمن يعملون بأيديهم وكان اليونانيون يهبطون بالعمل اليدوى وأصحابه.

ولم يأبه سقراط بالطبقة المترفعة أو التى تصطنع الكبرياء كل ما يههمه أن يتعرف إلى كل قادم. بل إلى الناس جميعا.. إنه ولوع بسبر أعماق النفس الإنسانية.. وله ميزانه الخاص فى تقييم الناس والأفعال.. كان يقيس الناس بأفكارهم وليس بأموالهم.. ولكنه كلما أمعن فى التفكير، اشتدت الأمور تعقيدا.. وزاد فى حيرته، كراهية الناس للتعليل وتقايسهم عن الخير أو البحث عنه..

وقرر سقراط أن هذا البحث عن الخير هو ضالته المنشودة إن الخير يستحق أن يكون دستور

حياة

كانت مشكلة سقراط: السببية.. كان السؤال: لماذا؟ وكانت مشكلة سقراط، الأخرى:

الإنسان.. ليس العضلات والعظام ولكن «النفس».

والذى لا يتردد فى سيرة سقراط أنه كان جنديا شجاعا أيضا بل لاحظ قواده أنه كان بالغ الشجاعة كما لاحظ زملاؤه فى السلاح أنه كان حمولا لا يشكو برداً أو جوعاً أو طول مسير..  
وحين كان يلف الجنود أقدامهم بالجلد والفلين كان هو يمشى بأقدام عارية وفى مقدمة الجيش لكى يحمى صديقا جريحا، مخاطرا بحياته.

وكان سقراط الجندى، إذا خلا لنفسه، وب نفسه، يحيا فى الجيش حياة التأمل والفكر لا حياة الجنود بصرامتها.. كان طويل السباحات كثير السرحات.

وقد أسلمته هذه الحال، إلى حياة الفكر، بعد خروجه من الجيش.. فلم يعد نحاتا كأبيه وهنا ثارت عليه زوجته التى تحسبت الضيق فى الرزق وما يجره هذا من معاناة تكبدها الأسرة.. ولكن سقراط مضى فى قراره لم يثن له عزم وأردف هذا بتعديل نظامه فى الحياة فتحاشى النوم الثقيل الذى يعقب الإكثار من الطعام كما تحاشى النشوة النزقة التى تصاحب الشراب.. كان يخرج من بيته فى البكرة الندية مع شروق الشمس ويقضى سحابة يومه حيث يتجمع الناس فى السوق أو الملعب يدرس النفس الإنسانية من خلالهم.. ولم تحجب هذه الحياة الجادة فهمه للنكتة واختلاطه بالناس بل اشتد إخلاصه لأصدقائه وتخلص من قلقه وثورات الغضب التى كانت تغليه فى شبابه.. لقد آضت نفسه إلى قرار.

فى أواسط العمر كان سقراط يتمتع بطمأنينة عجيبة وكأنه أسر أمرا لا يبنى عنه حولا..

بدأ سقراط يبحث عن «الخير» الحقيقى الذى يممر النفس بهناءات لا تبلى مؤمنا أن الخير ليس وعظا أو إرشادا أو دروسا تلقى.. إن الخبراء فى الخير كما يقول ليسوا أولئك الذين يعلمون الخير، إنما هم من يملكونه.

قال سقراط مرة: (إننى أكتسب من الأصدقاء الطيبين متعة لا يكتسبها غيرى من الجياد المطهمة أو الكلاب الجيدة أو ديوك القتال).

كان يرى فى صدق الصديق المناخ الذى يزدهر فيه الخير طلبته المنشودة

آن لنا الآن أن نقف مع الكتاب عند زوجة سقراط التى تواترت أخبار سيرته أنها كانت دائمة الثورة عليه.

بداية اسمها «زائنب» وقد تعرف إليها سقراط عن طريق الخاطبة أو عن طريق إحدى قريباته كما كانت تتم الزيجات في أثينا في ذلك الحين.. فتاة رأها تحمل جرة الماء إلى البئر في أقصى الشارع.. لم يعرفها قبل أن يقترن بها، ولم تعرفه.. تزوج منها لأنه كان يريد لنفسه ذرية.. وتزوجت منه يخيلها حلم المرأة بالبيت والعش والأمومة.. كانت تفتقد فيه الوسامة ولكنها كانت تنشئ الأمن والعطف والرعاية.. وكانت تصغره بعدة سنوات، وقد كان سقراط عطوفا بل كان صبورا على تأنيبها وما أكثر هذا التأنيب. سئل سقراط مرة:

أيهما أفضل الزواج أم العزوبة؟ فقال: أيهما فعلت ندمت عليه. وهو جواب يحمل تأنيبا للسيدة «زائنب» ولكن على طريقته المتفلسفة التي تسخر من الألم ولا تضع وقتها في حرب غير متكافئة.

\*\*\*

كان العام ثلاثمائة وتسع وتسعين قبل الميلاد وقد تجاوز سقراط في ذلك الحين السبعين من عمره.

كان أفلاطون في ذلك الوقت في الثامنة والعشرين من العمر يتحرق شوقا بعد خمود الحرب الأهلية وعودة الديمقراطية، أن يعمل بالسياسة بعد أن أمست المدينة مكانا للرجال المهذبين مرة أخرى كما يقول.

كل شيء هادئ نسيبا، في أثينا في نهايات القرن الرابع قبل الميلاد. ولمس سقراط هذا الهدوء وارتاح إليه فقد كان دائما يريد مدينة نظامية ويعتقد في طاعة القوانين غير أنه لم يعتقد قط في تكميم أفواه الناس ليبدو الأمر مستقرا..

كان سقراط في رحلة البحث عن الخير، قد وصل إلى ايمان أن الحق شائع بين الجميع.. وأن في وجوده الضمان لفرض السلام والوفاق.. والضمان في الوقت نفسه لاستئناف بحثه عن الحق.. وإذا بهذا الذي يستشرف إلى الحق والخير في الحياة، يدعى إلى المحكمة لتحكم عليه بالموت.. وتأكدت الإشاعة التي سرت في المدينة منذ قليل.

في ذلك اليوم لم يذهب سقراط إلى السوق كعادته ولكن اسمه كان يتردد في السوق كما لم يحدث من قبل.

وجاء يوم المحاكمة.. وذهب أصدقاء سقراط إلى بيته ليكونوا إلى جانبه وفي مقدمتهم أقربطون وأفلاطون.. ووجدوه هادئا مرحا كعادته فحاولوا أن يتكلموا المرح وهم يعترضون.. وما لبث سقراط أن لزم الصمت وهو يخطو خارج البيت ولزمه في الطرق وكأنه يسمع صوتا آتيا من داخله.. وصل سقراط وصحبه إلى المحكمة.

وكان المحلفون في طريقهم إليها ويبلغ عددهم واحدا وخمسمائة انتخبهم الأثينيون ليمثلوا المدينة.

بدأ الاتهام وسقراط يسمع وهو جالس في موقعه وكأنهم يتكلمون عن رجل آخر فالأوصاف التي ساقوها لا تنطبق عليه.. لقد كانوا يتكلمون عن رجل يحب الفوضى.. رجل ليس له مبادئ، غايته الكبرى أن يحطم الآخرين..

هل هذه أوصاف سقراط؟ لا يصدق ذلك أحد وأحسبهم لا يصدقون أنفسهم بدورهم.. ولكنهم كانوا يخشون على المزايا التي يتمتعون بها أن تزلزلها دعوة سقراط إلى العدل والحق.

كان أفلاطون يجلس في مقدمة الصفوف حتى لا تفوته كلمة ولكن ما سمعته من إلباس الباطل ثوب الحق غير وجهته.. غير رأيه واستبدل السياسة بالفلسفة..

وهكذا هزت المحاكمة والمحكمة أفلاطون وغيرت حياته كلها وكفر بالسياسة واعتنق الفلسفة.. نفذ يده من الحلم أو الاختيار الأول.. زهد كلية في أن يكون رجل سياسة وآثر أن يكون فيلسوفا. لقد دون أفلاطون خطاب سقراط في المحكمة على ورق البردي في دقة وعناية وأطلق عليه «دفاع سقراط.. مخالفا الأثينيين في تسمية دفاع المتهم «خطاب للتبرير».

بدأ سقراط دفاعه قائلا: (يارجال أثينا) ولم يقل سادتي أعضاء المحكمة.

كانت براعة استهلال من سقراط، ولكنها كانت أول تحدٍ ومضى سقراط في خطابه لم يزياله هدوء الحكيم، ورباطة جأشه قال سقراط في غير انفعال: (إن ما سوف يحطمني في النهاية - إن تحطمت - لن يكون ملتس أو أنيتس، ولكن حديث العالم السيء وشعوره السيء، الذي كان سببا في هدم كثير من الرجال الطيبين الآخرين فيما مضى - أجل وسوف يكون سببا في المستقبل كذلك فيما أحسب ولن يكون الأمر معي على خلاف ذلك).

وسرت مهمة بين الحاضرين وقال أحد القضاة لجاره وهو غاضب: (استمع إلى هذا الحبيس الذى يمثل دور القاضى فإذا كنا نحن الخمسمائة جميعا ندينه بالجريمة، ويموت كما يموت المجرم فإنه يبقى مع ذلك رجلا خيرا. أليس كذلك؟ أية مادة هذه التى يعلمها الشباب فى ديمقراطيتنا! إنى أعرف فى أية ناحية أعطى صوتى).

واصل سقراط حديثه رافعا صوته قليلا حتى أمكن سماعه بسهولة على الرغم من ضجيج الجمهور وقال: (ربما قال أحدكم: ألم تخجل ياسقراط لأنك ارتكبت أمرا أدى بك الآن إلى خطر الموت؟

وجوابى على هذا «إنك تخطيء يا صاح إذا حسبت أن المرء يجب عليه أن يوازن بين فرص موته وفرص حياته- وأقصد المرء الذى له قدر. هل تظن أن أخيل أقام للموت والمخاطر وزنا؟..)

ومضى سقراط غير هيب أو وجل: (إنى كجندى يارجال أثينا وقفت حيث أو قفنى رؤسائى من الضباط- أولئك الضباط الذين اخترتموهم لكى يكون نهم على سلطان.. وقفت عند بوتديا وعند امفيبوليس ودليم كما يقف أى إنسان.. وعرضت لى فرصة الموت.. أما الآن فإن الله هو الذى يوقفنى.. ذلك ما أعتقده وما أفهمه.. إنه الإله الذى يأمرنى أن أكرس حياتى لممارسة الفلسفة بالبحث فى نفسى وفى غيرى.. وإنى لأرتكب أمرا إذا يارجال أثينا لو أنى تخليت عن هذا الواجب خشية الموت أو أى شىء آخر).

وارتفعت قامة سقراط فى أعين لداته وعاتاته على السواء حتى أولئك الذين لم يفهموه من قبل، أخذوا يراجعون أنفسهم ويشيرون إلى الصواب. حتى أتيس -موجه الاتهام- ربما أحس ذلك إلى حد، ما.

لم يقبل سقراط أن يأتى بزوجته وأطفاله تشفع له وتبكى استدراارا للعطف كى يخلوا سراحه.. بل مضى فى سخريته المريرة أو مرارته الساخرة ولم تزاوله الكبرياء يقول:

إن القاضى قد أقسم ألا يقدم الفضل كما يشاء له الهوى، بل أن يقيم العدالة طبقا للقانون.. ولا ينبغى لنا أن نعودكم الحنث فى يمينكم ولا ينبغى لكم أن تسمحوا لأنفسكم بالانزلاق فى هذه العادة.

وكأن سقراط كان يسجل للتاريخ.. كان يعرف أنه الأخلد ذكرا والأبقى في ذاكرة الأجيال التي تعيش على المواقف حتى بعد أن يصرع البغى أصحابها. وليس أدل على هذا من قوله لمن يحاكمونه.

إن من الخطر على المرء أن يقف في معارضة نزيهة سواء تحت الحكم الديمقراطي أو تحت دكتاتورية الثلاثين.. إن الرجل المخلص لا يكاد يستطيع أن يخدمكم في وظيفة عامة مع بقائه حيا. وتبلغ الشجاعة في سقراط ذروتها وهو يقول مرفوع الرأس:

سواء لدى أن تطلقوا سراحى أو لا تطلقوه. ولكن أيا ما تفعلون، فلتفعلوه وأنتم تعلمون أنى لن أغير مسلكى، حتى لو حكمتكم على بالموت عدة مرات!

وسقراط الذى أثر فضيلة التواضع على مسيرة حياته كلها، أثر فى المحاكمة أن يتعالى على جناته، وبحق.. لقد حذرهم سقراط من عليائه وهو سجينهم: (خير لكم أن تستبقونى، فلن يتيسر لكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى!).

وخلت المحكمة للمداولة. ثم جاء المنادى وقد صدر قرار المحكمة بأغلبية صغيرة فإن ثلاثين صوتا فى الجانب الآخر كانت تقلب القرار وسجل كاتب المحكمة حكمها.. ومس المنادى سقراط بعصاه، إشارة إلى أنه وجد مذنباً!!

وعلى الرغم من أن أصدقاءه كانوا يتوقعون هذا الظلم فقد كان وقع الحكم عليهم شديدا عند إعلانه.. وشديدا أيضا على المحتشدين فى المحكمة جميعهم.. وقد انهمر باكيا ذلك الرجل البسيط الذى جاء من سوق الزيت.

الوحيد الذى لم يندشش للحكم أو لنتيجة التصويت، إنما هو سقراط.

واقترحوا عليه أو طلبوا إليه أن يقترح العقوبة!!

وهنا قال فى سخرية لا تخفى: (قدموا لى الطعام بدون مقابل مادمت حيا فى ملجأ المدينة.. إنكم تكافئون الظافرين فى أولمبيا وقد فعلت أكثر جدا من أن أفوز لكم فى سباق.. ثم إنى فوق ذلك -رجل فقير- فى حاجة الى معونتكم كى أوصل عونى لكم).

وزمجر المحكمون وأيقن أصدقاء سقراط من النهاية

كان يستطيع أن يطلب النفي ومن الراجح أنه كان سيجاب إلى طلبه لأن الحكم كان بأغلبية طفيفة ولكنه قال: (إن كنت لا أستطيع أن أقول الحق في مدينتي الخاصة أئينا، فكيف يسمحون لي بقوله في أي مكان آخر.. وأنا لا أستطيع أن ألزم الصمت لأن الله قد أمرني أن أتكلم.. وإن كنت أعرف أنكم لا تؤمنون بذلك.. وإذا قلت إن الواقع أن أعظم خير يصيب الإنسان هو أن يتحدث كل يوم عن الخير وعن الأمور الأخرى التي سمعتموني أناقشها، باحثاً في نفسي وفي غيري - لو قلت إن الحياة التي لم تبحث لا تستحق أن يعيشها إنسان. إن الحق هو ما أقول يارجال أئينا.

إن الموت بطيء، وقد لحق بي، وأنا شيخ حسن بطن. أما الشر فسرير، وقد لحق بكم، على الرغم من مهارتكم. لا بد لي أن أعاني حكماً، ولكن لا بد لكم كذلك أن تعانوا حكمكم.

ثم توجه بالعزاء لأصدقائه قائلاً: من يسرى عنهم (سوف تكون النتيجة خيراً كذلك.. فإما أن يكون الموت نوماً فحسب، أو لم تزايد روح الدعابة، بعد.

وذهب إليه صديقه أفریطون في سجنه يمرض عليه حلولاً منها تخليصه من السجن بأى صورة حتى الرشوة فرفض سقراط ولقن «أفریطون» درساً ظل يذكره قال له: إن مجرد الحياة لا يهم، وإنما تهتم الحياة التي تلتزم الصواب.

\* ان الشر لا يرد بالشر

\* ان الشر لا يمكن أن يصدر عن إنسان خير.

وفي حنان بالغ يعرفه الوطني الحميم قال سقراط إنه لا يفر من مدينته إلى مدائن أخرى أحسن قانوناً.. كيف أستطيع أن أهدمها بعد أن عشت فيها ولو هدمتها كيف أستطيع أن أتكلم عن الخير بعد ذلك.

وأخذ سقراط يدلك ساقه حيث خدرتها وأدمتها الأصفاد. وجاءه سجنانه يستأذنه أن الوقت قد حان.. وأخذ يبكي وينعته بأنبل وأرق الصفات وأنه خير إنسان أتى إلى ذلك المكان.

وهنا سأله أفریطون والكلمات تتعثر على شفثيه:

(على أية طريقة يريد أن يذفن؟).

وهنا قال سقراط مبتسما (على أية طريقة تحبون- إذا لحقتم بي ولم أفر منكم).

وبكت زوجة سقراط بحرقة وكانت قد قضت الليلة الأخيرة معه فى سجنه ومعها أطفالها.. وفى الصباح ودعهم وطلب إليها أن تعود بالأطفال إلى البيت ليحضرها المشهد الدامى: الإعدام. المشهد الذى لم يستطع الرجال من أصدقائه أن يحتملوه فصرخ من بينهم أبولودوس صرخة مدوية كادت تحطم من سمعها فقال له سقراط فى ثبات (ماهذا! الذى تفعلون. لقد كان ذلك سببا من الأسباب الكبرى التى حفزتنى إلى إبعاد النساء- كى لا يقعن فى هذا الخطأ. لقد سمعت أن الرجل ينبغى أن يموت فى صمت فالزموا السكون وتمسكوا بالصبر).

وجاءوه بالكأس وقد دسوا له السم فقال ولم تغادره ابتسامته: أرجو أن تكون الرحلة سعيدة.

\*\*\*

والآن يصمت النثر ويترك الختام للشعر فقد صور أمير الشعراء المأساة أبلغ تصوير فى أبياته:

سقراط أعطى الكأس وهى منية	شفستى محب يشتهى التقبيل
عرضوا الحياة عليه وهى ذليلة	فأبى وأثر أن يموت نبيل
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة	ووجدت شجعان العقول قليلا